المحاضرة العاشرة: من بلاغة القصص في الحديث النبوي الشريف

تمهيد

أدرك الرسول –صلى الله عليه و سلم –أثر القصة العجيب في النفس الإنسانية لما فيها من جذب للقلوب واستمالة للنفوس، و مسايرة للفطرة، فكان أول من ترسم هدي القرآن فاستخدم السرد لإبانة أصول الدعوة، و تفصيلها و إيضاح المبهم منها فكان كلامه –عليه الصلاة و السلام–"أبلغ كلام يجري به لسان بشر بعد القرآن بلا تكلف أو تصنع أو تقعر، و من هنا ندرك الفرق جليا بين صناع الكلمة الذين نلمس في كتابتهم ذكاء و عبقرية، و نبوغا، و نلمس في صناعتهم روح الإبداع و لكنهم لا يحركون في أعماقنا ما يحركه كلام الرسول من الشعور العميق بالحياة، و بما وراء الحياة معا"[1].

القصة النبوية كمدونة سردية تنتمي إلى السرد العربي الشفاهي الذي نشأ في ظل السيادة المطلقة للمشافهة، لأن تدوين الحديث لم يتم إلا بعد وفاة النبي –صلى الله عليه و سلم –حيث دُوِّنَ من طرف الصحابة و التابعين فعلى حد تعبير (عبد الله إبراهيم): "لم تكن الشفاهية نظاما طارئا في الثقافة العربية، بل كانت محضنا نشأت فيه كثير من مكونات تلك الثقافة في مظاهرها الدينية و التاريخية و اللغوية و الأدبية"[2]. والقصة النبوية متعددة الأبعاد: –البعد الديني– البعد التربوي التعليمي–البعد الحجاجي– البعد الجمالي. وهي في تحقيق هذه الأبعاد خطاب مركب، لا تنفصل فيه غاية عن أخرى.

1–المفهوم الفني للقصة النبوية

مما لا شك فيه أن للقصة أثرا قويا في النفس الإنسانية، فهي وسيلة من الوسائل المثيرة للفكر الإنساني، و المربية للنفس البشرية، و لما كان للقصة هذا التأثير لعظيم في إثارة الفكر وتهذيب النفس اتخذها القرآن وسيلة من وسائل الدعوة و التذكير و التوجيه إلى عبادة الله –عز وجل–و هو اللطيف الخبير قص على رسوله –صلى الله عليه وسلم– أحسن القصص في كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل...، "و لما كان البيان النبوي امتدادا و بيانا للقرآن الكريم كان لذلك النوع الأدبي فيه نصيب

[1]– محمد الصالح الصديق، مع الرسول ص –في بلاغته و هجرته و إسرائه و معراجه، ديوان المطبوعات الجامعية الساحة المركزية بن عكنون الجزائر ط2، 1992 ،ص 56.

[2]–عبد الله إبراهيم السردية العربية ، بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر بيروت، ط 2 2000 ، ص 24.

متميز، يعمق به النبي –صلى الله عليه وسلم–طائفة من المفاهيم و القيم التي تعد من المسائل الكبرى في النماذج الكلية من حياة الإنسان"[1].

القصة النبوية امتداد و بيان للقصص القرآني لأن كلاهما يؤدي الغرض نفسه الغرض الديني التربوي، على هذا جاء القصص النبوي كلون من البيان و أسلوب من أساليب الآداء فمقاصده هي التي تملي الأسلوب و الطريقة كما هو شأن القصة القرآنية، حيث إن" المقاصد التي يرمي إليها القرآن هي التي تملي الأسلوب و الطريقة و هي التي من أجلها يسلسل القرآن الأحداث و يربط بينها برباط من العاطفة الوجدان"[2]. و على هذا فإن عرض الحديث النبوي لأحداثه القصصية ليس إلا هو العرض الأدبي، العاطفي

الفني كذلك.

وهي كقصة الأصل لا تجنح إلى الخيال الشارد الجموح، ولا للتعمق المفلسف الغامض، و لا للسطحية الفارغة الجوفاء المغطاة بقشرة خالية من بديع العبارة، و ليست هي القصة التي وضع الغرب لها عشرات القواعد والشروط و لكن هي القصة التي تقوم على سلامة فطرة القاص وتكفي كل الكفاية في تقرير الغرض وتروع كل الروعة في تسلسل الأحداث و لباقة الحوار، وتصوير الأشخاص، وتتبع فكرتها من أجناس النفوس، الكائنة الحية، فلا تعالج أنماطا منها في عالم المجهول ، فإن جنحت إلى عالم غير منظور بنته على تباشير الحاضر الشاهد به، فربطت بينهما بسببية تمنع الطفرة، و بألفة تأنس بالرحلة وهي في ذلك كله وفي غيره الوسيلة المشتهاة للنفس الطلقة، و الأسلوب الرائع المخدر للوجدان تجوس معه حكمة الطبيب الرؤوف في القلب وتقطع و تصل ليصحو في صورة حلم ورحلة على حقيقة قلب و صحة اعتقاد".[3]

وهي كالقصة القرآنية وسيلة من وسائل الدعوة و التربية الدينية السمحة التي تهدف إلى إقامة صرح الإيمان، ولما كان البيان النبوي متأثرا في أهدافه و أساليبه بالقرآن الكريم كانت إحدى و سائله إبلاغ الدعوة وتثبيتها في قلوب المؤمنين، وقد خضعت القصة النبوية في موضوعاتها و طريقة عرضها وإدارة حوادثها لمقتضى الأغراض و الأهداف الدينية، و هذا الخضوع للغرض الديني لم يمنع بروز الخصائص الفنية(البلاغية) في عرضها، فكانت في ذلك متبعة لمنهج القصة القرآنية و لنسق البيان

---

[1]–كمال عز الدين، الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية، دار إقرأ د ط، د ت، ص459

[2]– محمد أحمد خلف الله ، الفن القصصي في القرآن الكريم ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ط 3،1965 ، ص127.

[3]– كمال عز الدين، الحديث النبوي من الوجهة البلاغية، ص 459–460.

القرآني كله فقد لوحظ أن "الجمال الفني أداة مقصودة للتأثير الوجداني، فيخاطب حاسة الوجدان الدينية، بلغة الجمال الفنية"[1].

و كان الرسول –صلى الله عليه وسلم–أول من سلك مسلك القرآن الكريم و ترسم خطاه حيث اتخذ من القص وسيلة لبلوغ الغرض الديني، فالقصة النبوية تحقق غرضا دينيا –و هي الغاية الأولى –و آخر أدبيا، فهي إقناع للعقل و إمتاع للعاطفة بأسلوب حكيم و هادف.

و مفهوم القصة النبوية لا يخرج عن مفهوم القصة كما عرفها العرب و كما جاءت في القرآن الكريم، و هو تتبع الأحداث الماضية و إبراز جانب العبرة فيها، تتناول أخبار الماضين و أحداث الأولين سواء كانوا من الأنبياء أو من أقوامهم مع التحديد الزماني و المكاني، و نطلق اسم القصص النبوي على القصص الواقعة للرسول –عليه الصلاة والسلام –في فترة من فترات حياته، وعلى القصص التمثيلية–التي يسوقها صلى الله عليه وسلم في شكل أمثال –وعلى قصص أخربقصها من عالم الغيب .[2]

من مظاهر بلاغة القصة القرآنية:

1– نلاحظ فيها غنى مدهشا في الأفكار والمعاني، فمعاني الحديث الواحد كثيرة متنوعة. ومما يدل على ذلك ما نجده من استنباط العلماء للأفكار والأحكام العديدة من الحديث الواحد. وهذه الظاهرة عامة في الحديث.

2– من مظاهر بلاغة القصة كذلك القدرة الرائعة على التصوير الموحي والتشبيه الموضح، مما يدل على موهبة فذة، فأنت في قصص الحديث أمام صور فنية رائعة ممتعة ساحرة تعجز مواهب الدنيا أن تأتي بأروع منها. وأن وفرة الصور الجميلة تدل على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يؤثر التعبير عن المعنى المجرد بالصورة الحسية المستمدة من حياة المخاطبين لأن ذلك أدعى إلى أن يفهموا مراده ويتأثروا به، ولأن الصورة البيانية تزيد من قيمة الأثر الأدبي.

وفي الحديث طرائق متعددة في التصوير الموفق[3]:

–منها مشاهد تصويرية تعتمد القصة السريعة تارة والموقف تارة أخرى.

---

[1]– سيد قطب، التصوير الفني في القرآن الكريم، دار الشروق ، القاهرة ط3، 1413هـ، ، 1995 ص171

[2]– ينظر: مأمون فريز جرار، خصائص القصة الإسلامية، دار المنارة للنشر و التوزيع، جدة، السعودية،ط1، 1988 ، ص 113.

[3]–محمد الصباغ، الحديث النبوي مصطلحه بلاغته كتبه، ص 72–73

-ومنها التشخيص الحي الذي يبحث الحيات والحركة في الكائنات الجامدة

- ومنها التشبيه الذي يقرب الأمر ويوضح الموضوع وهو كثير جدا.

-ومنها الكناية المهذبة اللطيفة.

- ومنها المجاز البليغ الرشيق.

3- دقة الوصف: في الحديث صور وصفية نادرة في دقتها وإحاطتها وواقعيتها.

4- البعد عن التكلف.

وبواسطة هذه الطرائق وغيرها مما نجده في الحديث عمد الرسول صلى الله عليه وسلم الى تصوير المشاعر الداخلية وتحليل الدوافع النفسية المتعارضة ، وتجلية القضايا التجريدية بكل وضوح .

وكثيرا ما تكون الصورة في دلالتها مغنية عن الكلام طويل .

ولنضرب بعض الأمثلة على بعض هذه الطرائق :

في صدد التعبير عن فرح الله الشديد بتوبة عبده يعرض لنا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم لوحة تصويرية صيغت على شكل قصة سريعة :

هذا رجل يمشي في الصحراء ، فأدركه التعب والجهد فنزل بعد أن وضع على ناقته زاده وماءه ، ثم نفاجأ بالرجل لايجد ناقته ، وتفلت منه ، فيوقن بالموت المحقق .. ويأتي شجرة فيضطجع في ظلها .... ثم نفاجأ مرة أخرى بالرجل يرفع رأسه فيرى ناقته فوق رأسه ، فيفرح فرحاً يعقد لسانه ، ويحمله على الغلط في كلامه ، إنْ فرح الله بتوبة عبده يفوق فرح هذا الرجل . يقول صلى الله عليه وسلم : « لله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض

فلاة ، فانفلتت منه ، وعليها طعامه وشرابه ، فأيس منها ،فأتى شجرة فاضطجع في ظلها وقد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده ، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدي وأنا ربك . أخطأ من شدة الفرح » [1]

وفي موضوع الرفق بالحيوان والشفقة عليه لعجزه نرى لوحة فنية رائعة وردت في اطار قصة سريعة أخرى ولنستمتع برؤية المشهد الحي الموحي : يقول صلى الله عليه وسلم : « بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئرا فنزل فيها.فشرب ثم خرج.فإذا كلب يلهث، يأكل الثرى من العطش . فقال الرجل :، لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان قد بلغ مني ، فنزل البئر ، فملأ خفه ماء ثم أمسكه بفيه حتى رقي ، فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له » قالوا : يارسول الله : إن لنا في البهائم لأجرا ؟ فقال : « في كل كبد رطبة أجر » [2] .

وهناك أحاديث كثيرة مشهورة وردت على شكل قصص من أشهرها حديث أصحاب الغار [3] ، وحديث الرجل الذي قتل مئة نفس[4] ، وحديث الأبرص والأقرع والأعمى [5] ، وحديث الغلام والساحر والملك [6] .. الخ .

أماالامثلة على التشبيه فما اكثرها[1] وما أكثر ، ما نجد في الحديث من تشبيهات خالدة رائعة سنورد منها ما يأتي :

« مثل القائم في حدود الله [٢] والواقع فيها [٣] كمثل قوم استهموا على سفينة ، فصار بعضهم اعلاها ، وبعضهم أسفلها . وكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم ، فقالوا : لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا . فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا . وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا » [٤] .

صورة رائعة حواها هذا التشبيه المحكم الخالد واستطاعت ان تبين ما لا تستطيع الصفحات أن تبينه .

ـ وهناك صور جميلة وردت من طريق الاستعارة الرائعة كما في قوله : « رفقا بالقوارير » [٢] .

وهناك صور جميلة وردت من طريق الكناية المهذبة اللطيفة .

كما في قوله صلى اللـه عليه وسلم : « من كشف قنـاع امرأة وجب لها المهر » يكني عن الدخول بكشف القناع ، لانه يكشف في تلك الحـالة غالبـا [٣] .

وكما في الحديث الذي مر معنا آنفا : « ورجل تصدق بصدقة فأخفاهـا ، فلم تدر شماله ما أنفقت يمينه » .